

جهد الأصمعي في رواية الأخبار والقصص التاريخية

أ.د. أياد عبد المجيد إبراهيم

جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا / فرع أبو ظبي

لم تختلف المصادر التي ترجمت للأصمعي في اسمه وسلسلة نسبه ، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع ...^(١) وقد ورد في الكثير من المصادر نسبته إلى باهلة ، وذكر المبرد أن "معن هوزج باهلة"^(٢) ، ويتفق الجزري مع ابن خلكان في أن النسبة إلى باهلة غير صحيحة " وإنما باهلة اسم امرأة مالك بن اعصر ولدت له سعد مائة بن مالك .."^(٣) ولقب بالأصمعي ، وذلك لأنه نسب إلى جده (أصمع) وتتفق المصادر التي ترجمت للأصمعي وذكرت مولده على أنه ولد سنة ١٢٢ هـ في خلافة (هشام بن عبد الملك) وقضى أكثر من تسعين عاماً فيكون قد عاش تسعة أعوام في العصر الأموي ، وأربعة وثمانين عاماً في العصر العباسي وأمضى الشطر الأكبر من حياته في البصرة مكان ولادته ومستقر آبائه وأجداده ، فقد كان فيها حي يحرف بجي بني أصمع .^(٤)

وقد عاش الأصمعي في الدولة الأموية التي كانت الثورات تكاد تمزق إقليمها ، فينتهي الثائرون ووقتها كان في عامه التاسع ، فهو إذن عاصر الدولتين ، وعاش التحولات المفاجئة في مختلف نواحي الحياة ، وتمتع بشهرة واسعة فقد " كانت الخلفاء تجالسه وتحب منادمته "^(٥) ، مما دفع أحد معاصريه أن يبالغ في وصفه قائلاً : " عجائب الدنيا معروفة معدوده ، ومنها الأصمعي "^(٦) وكان لثقافة الأصمعي روافد عديدة أهمها : علوم القرآن الكريم وقراءاته والحديث الشريف والشعر العربي والأخبار وقصص الأعراب والأيام واللغة ، ولم يقف عند مدينته البصرة في طلب

العلم ومربدها وبإديتها بل كان لإقامته في مكة والمدينة ،^(٧) وبغداد وخراسان^(٨) ، أثر واضح في ثقافته تمثل بمروياته .

وتجمع المصادر أنه توفي بالبصرة سنة ٢١٦ هـ^(٩) برواية عبد الرحمن ابن أخيه^(١٠) .

مصادر الأصمعي التاريخية :

١- الأخبار :

قبل أن يصبح التاريخ علماً له نظرياته وأساسه الفلسفية وقوانينه ، تحقيقاته وتعليقاته ، لدى ابن خلدون ومن جاء بعده ، كانت الكتابات التاريخية عند العرب تسير على وفق أنماط متصاعدة تتفاوت في عمقها وسرعتها وتأثيرها بالإقليم والعصر ..

ولابد لنا من إلمامه بتطور تلك الكتابات التاريخية ، ورصد اتجاهاتها وتمحيص ما يتصل بها من سرد حوادث وتيارات سياسية واجتماعية ..

ويمكن أن نتوقف عند القرن الثاني للهجرة ، ولدى بعض رواة التاريخ والمغازي والسيرة من أمثال وهب بن منبه (ت ٤١١ هـ ، وعروة ابن الزبير ت ٩٤ هـ ، وشرحبيل بن سعادات ١٢٣ هـ وعاصم بن عمر بن قتادة ت ١٢٠ هـ) .

فقد كانت كتابات هؤلاء في المغازي تمهيداً هياً الأرضية اللازمة لمن جاء بعدهم كالأزهري والواقدي وابن إسحاق .

أما الإخباريون فقد شاركوا بجمع الروايات التاريخية من شتى مصادرها من الوثائق الرسمية والنقوش الأثرية في القليل النادر ، ورواة القصص والنسابة ، وشيوخ القبائل ، ثم رتبوا تلك المادة بعد نقدها وتمحيصها ، ودونهاها على الورق في شكل كتب ومصنفات ورسائل ..

لقد انصب دور الإخباريين على جمع الأخبار كافة من مظانها ، وعمت تلك الحركة الأمصار الإسلامية في المدينة والعراق والشام ومصر ..

وشكلت الروايات الشفاهية المتواترة والمحفوظة في ذاكرة الرواة عن شتى الأخبار المتعلقة بالتراث التاريخي والإسلامي عصب ومحور عملية الجمع .. ولم يدخر الإخباريون وسعاً في الاتصال

بشيوخ القبائل ورواتها لجمع تراثها النسيبي ، فضلاً لجمع الأخبار والاعتماد عليها في وضع تواريخ تحفل بشؤون الأمة واتصال تراثها وترباطه ، ومصداق ذلك أن جهود الإخباريين اتجهت نحو (التاريخ) بمفهومه الصحيح .. فقد أهتم عوانة بن الحكم (ت ١٤٧ هـ) وهو أستاذ الأصمعي ، بتوظيف أخباره في تصنيف تاريخ الإسلام حتى خلافة عبد الملك ، وأبو مخنف استخدم مادته في التاريخ لصدر الإسلام ، ثم أرخ (لإخبار صفين) على حدة . ثم حوادث العراق حتى نهاية العصر الأموي .

وتوج المدائني علي بن محمد (ت ٢٢٥ هـ) المؤرخ البصري كثير التصانيف جهود الإخباريين وبزهم جميعاً حين أرخ التاريخ العربي برمته من الجاهلية حتى مطلع القرن الثالث الهجري ، وفي جوانبه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة وكثيراً ما روى الأصمعي أخباراً حدث بها عن أسفاره ورحلاته في الفيافي النائية بحثاً عن الخبر واللغة والشعر ، وهي على وفرتها تدل على أنه تعشق حياة البادية وألف عيشها ، وعرف مسالكها لطول ما ارتاد سهولها وحزونها ووهادها قاصداً القبائل في منازلها ومرابعها ، ومصايفها .

والحق أن علماء اللغة ورواة الأدب والأخبار قد سبقوا الأصمعي في هذا النهج قصد الفائدة ، ونهلوا من المعين نفسه الذي نهل منه ، غير أنه تميز عنهم في مسائل كثيرة لم يسبقه إليها أحد منهم ، فهو لم يكتف مثلاً بالبحث عن المنتديات المعروفة التي يجتمع فيها الشعراء والكبار ، ولكنه يستوقف الرائج والغادي من الأعراب .

ولعل الأصمعي هو الوحيد الذي جعل مجتمع الأصمعي كله مدرسة له ، فقد آلى على نفسه أن لا يترك ألواحاً من يديه إلا وقت الحاجة ، فكان يأتي سوق البصرة ، ويجلس إلى صاحب حانوت يسمع ما يتحدث به المشترون والباعة ، ويعبر الأزمة فيتحدث هنا مع كناس سمعه يغني بآبيات من الشعر ويصادف متسولاً ، ويسمع بعض النانحين أو النانحات يندبن أمواتهن .. حتى الأطفال الصغار لم يفلتوا منه ، وربما وقف إليهم يسألهم عن ألعابهم وأصطلاحاتهم فقال : " رأيت في البادية صبية يتراجزون فوقفت اسمعهم فمنعوني ، فتنحيت جانباً وصرت أدون أقوالهم

فمر بي شيخ من ذلك الحي ورأى ما أصنع ، فقال : " أكتب قول هؤلاء الأقزام والأدناع ؟ ففرت بكلمة أدناع ومعناها السفلة فدونتها " (١١) .

لقد جمع الأصمعي أخباراً كثيرة دونها في ألواح ودفاتره ، ورواها الناس في حلقاته ، وكانت في حقيقتها على أنواع ، منها ما يصلح أن يكون خبراً تاريخياً من مثل ذكر الوقائع والحروب والأيام والأحلاف والمنافرات في الجاهلية ، أو الغزوات والجهاد والفتوحات في صدر الإسلام والعهد الأموي ، ومنها ما يدخل في سير الملوك والقواد والولاة والحكام والأعلام في التاريخ ، وبعضها يعتبر جزءاً من تاريخ الشعراء وأحوالهم وسيرهم ، كما روي الأصمعي إلى جانب ذلك كله أخبار تكشف جوانب كثيرة من عادات وأخلاق القبائل والمجتمعات العربية وتصرفاتهم في معاملاتهم ومشاكلهم وطرق التحكيم عندهم ، إلى غير ذلك . (١٢) كما ضمت دفاتره وأوراقه قدراً كبيراً من أخبار العرب في صدر الإسلام والعهد الأموي حتى أيام بني العباس ، العصر الأول ، الذين عاصروهم ، ولم يدع خليفة ولا قائداً ولا والياً ولا شاعراً إلا ذكر نبذة عن شخصه وسرد بعض أعماله وتصرفاته .

وكان مذهبه في جمع الأخبار وقبولها كمذهبه في أخذ اللغة والشعر ، فكان لا يقبل غير الصحيح الموثق الثابت ، ولا يسكن إلى رواية رجل مطعون بصدقة أو مشهور يضعف ذاكرته ولا يتأثر بالمفلوط الشائع بين الناس ولكنه يسلك على مذهبه في البحث والتدقيق والتحقيق (١٣) .

لقد روى الأصمعي الأخبار عن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٤) وعن يونس بن حبيب (١٥) ، وأبي عمرو بن العلاء (١٦) ، وروى عن شيوخ آخرين من ذلك روايته عن شيخ من الرباب ، وعن شيخ بن بكر بن وائل (١٧) ، كما روى عن أبيه بعض أخبار الجاهلية (١٨) . وأخبار العمالقة وحروبهم ومجالسهم وأشكال معيشتهم وعاداتهم ، وأحوال بعض ملوكهم وعظمائهم وحدث عن العرب البائدة والعاربة والمستعربة ، وروى الكثير عن عرب الجاهلية قبل الإسلام وأيامهم والحروب التي استعرت بينهم ، فنذكر حرب البسوس بين بكر وتغلب وروى أشعار إبطالها كالمهلل وجساس بن مرة وأخته جلييلة والهارث بن عباد وجحدر وغيرهم ، وعن حرب واهس والغبراء بين عبس

وذبيان ، وعن أبطال بني عبس كزهير بن خزيمة وقيس بن زهير وعنتر بن شداد مع ذكر أشعارهم التي قالوها في حروبهم ، وتحدث عن فارس بن جشم ودريد بن الصمة وعشقه الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وعن ربيعة بن المكدم وبطولاته وحادث مقتله الغريب . كما نقل أخبار الصعاليك والعدانين كعروة بن الورد والشنفري والسلوك بن السلوك وأخبار اللصوص وقطاع الطرق والطرق وأشعارهم .

ومن ينعم النظر فيما رواه الأصمعي من أخبار عرب الجاهلية وحدهم يكاد يبنى أنه لم يترك حادثاً خطيراً من حوادث هؤلاء إلا روى شيئاً عنه إن لم يأت بمعظم أخباره ، وهذا ما دفع رواة الأدب والتاريخ إلى القول إنه نقل لنا معظم أخبار الجاهليين وأدبهم وشعرهم ، فقد حرص الأصمعي على رواية أخبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، وحملت كتب الأدب الكثير منها مع أشعارهم وأخبارهم^(٢١)

وكان الأصمعي يمهّد في مجالسه بتقديم يتصل بموضوع القصيدة وأخبار الشاعر فالشعر الذي يتصل برحلة أمرئ القيس إلى قيصر يتضمن إشارات وافرة عن الرحلة^(٢٢) . وينطبق ذلك ما رواه لدريد بن الصمة^(٢٣) ، والأعشى^(٢٤) .

كما دقق الأصمعي في القصائد التي حملت بين ثناياها أخباراً ، فتنبه إلى توافق هذه الأبيات مع النص أو الخبر وتقد الرواية حين تناول ذلك بشرحه للنص^(٢٥) .

أما منهجه في رواية الأخبار ، فالأصمعي يدرك ما يحمله الناس ويزيدونه ومن صور شكه ما جاء ببعض الروايات منها على سبيل المثال ، مرور شأس بن زهير بأبيات من بني عامر بن صعصعة ، وأبيات من بني غني على ماء لبني عامر ، في روايته بقتل زهير وابنه شأس ..^(٢٦)

كما تناول الأصمعي القصص المصنوعة والشعر الذي نخله الرواة فيها^(٢٧) . أما شروحه التي تضمنت رواية الأخبار التاريخية فقد اتبع الأصمعي فيها الإيجاز في القول ففي قول الحارث بن حلزة :

أمر علينا جرى إياد كما قيل
لطسم أخوكم الأباء

" قال الأصمعي : كان جديس وطسم أخوين ، فكسرت جديس على الملك خراجها ، فاخذت طسم بذنب جديس " ^(٢٨)

وقد ذكر الأصمعي خبر ثمود في قول علقمة :

رغا فوقهم سغب السماء ، فداحض بشكته ، لم يستلب ، وسليب

..... حكى الأصمعي ، قال : هلك ثمود ، حين رغا السقب ، ثلاث رغات ، فاهلوا ثلاثاً ، ثم أهلكوا عن آخرهم . (٢٧) ”

واعتمد الأصمعي التسلسل المنطقي في رواية الخبر ، وهو ملوك فارس وتملك عليهم (من شاءت) وكانت عنان تملكهم ملوك الروم ، فلما غلب كسرى ، فضعف أمر كسرى ، وغزا بعض العرب بعضاً (٢٨) ”
وحين تختلف رواية الخبر عند الأصمعي ، ولا يجد في مصادره ما يوثق أحدهما للاخذ به ، يشير إلى ذلك دون أن يقطع بحكمه ، فهو حين يروي خبر مقتل زهير بن خزيمة العبسي وابنه شاس من غير واحد من الأعراب جاء فيه أن الغنوي الذي قتل شاس بن زهير لجأ إلى منزل عجوز من بني إنسان ” فقالت له العجوز : لا تبرح حتى ياتي بني فياسروك . قال الأصمعي : فاخبرني مخبران ، اختلفا ، قال أحدهما : إنه أخذ سكيناً فقطع عصبتي يديها ، وقال الآخر : أخذ حجراً فشرخ به رأسها ثم أنشأ يقول : ولأنت أشجع من أسامة أو مني غداة وقفت للخيـل ” (٢٩)

ولم يحفل الأخباريون كثيراً بالإسناد قدر اهتمامهم باللباب ، ولعل ذلك يفسر حملة أهل الحديث عليهم ، كذلك تفصح كتاباتهم عن حذف طرائق العرض في تسلسله وحيويته وحبكته .
حتما اعتمد الطبري فيما بعد منهج الاسناد في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) فجمع الأحداث التاريخية ودعمها بسند أو أكثر توخياً للصلق والأمانة العلمية ، وهو بذلك أراد توثيق الخبر التاريخي بنفس المنهج الذي يوثق به الخبر الشرعي ، ولذلك فقد تميز كتاب الطبري بسعة معلوماته ، وجمعه لروايات الأخباريين الذين سبقوه وحفظه لها ، حيث فقدت الكثير من كتبهم ، وبقي كتابه الموسوعي الذي استوعب غالب المصنفات التي سبقته كمؤلفات المدائني والواقدي وهشام بن محمد الكلبي والأصمعي وعوانه بن عبد الحكم ، والهيثم بن عدي .

لقد احتفظت المصادر التاريخية بمادة أدبية كبيرة ، وقد أثبت الطبري من خلال روايته لتلك النصوص بأنه إلى جانب ما عرف به كرجل دين ، ومفسر ومؤرخ ، أنه أيضاً راوية للشعر ، فإذا كان

كل من المفضل الضبي (ت ١٧٨ هـ) والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) وأبي زيد القرشي (ت. ٢٧٢ هـ) قد عدوا من رواة الشعر العربي (الثقات) فإن جمعهم واختيارهم للشعر العربي ربما يبلغ مستوى ما بلغه الطبري من جمع المادة الشعرية في تاريخه ، وقد استقرأ هذه النصوص ورصدها وحققها وحللها واستنتجها أحد الباحثين اليمانيين^(٢٠) ، وهي نتاج عصور تاريخية عديدة ، فكانت المادة الشعرية ، تعبر عن مؤثرات تاريخية فاعلة ، وتكشف عن غايات اختلفت باختلاف الرواة واختلاف غاياتهم ، واختلاف دوافع ترويجها ، وكل هذا ورد موزعاً ومتناثراً بين أجزاء الكتاب الكثيرة ، وتغطي مرحلة تاريخية طويلة تبدأ من أعماق التاريخ وتنتهي عند أوائل القرن الرابع الهجري . لقد أورد الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك نصوصاً شعرية كثيرة ، استجابت لحاجة علمية حيث كان يرى أن تلك النصوص قد صدرت عن واقع تاريخي معين ، وصاغت مواقف معينة من أحداث التاريخ ووقائمه فالتبست بتاريخ تلك الأحداث وتداخلت معها .. من هنا لابد من فهم علاقة التاريخ بالشعر وعلاقته الشعر بالتاريخ التي انتهجها الأصمعي^(٢١) . ولا نشك في أن الإضطراب والانتحال لعب دوراً كبيراً في نسبة النصوص الشعرية إلى قائلها في كتاب الطبري ، فضلاً عن الدس واختلاف الروايات ، أو تكلف الرواية واضطرابها ، كل هذا عرض عملية صناعة الأشعار ونحلها لتتوافق مع سيرة الرواية أو القصة ، أو الأسطورة ، فتأتي النصوص الشعرية مرافقة لكل ما يروي .

القصة التاريخية :

شكلت القصة التاريخية مادة مهمة في الشعر يستمدها الشاعر من بينته أحياناً ، يسجل حوادثها أشخاص المجتمع القبلي ، وحياة الجاهلية مليئة بالشواهد التي تدل على وجود القصة ، وتشير إلى أهميتها في حياتهم وأدبهم . واعتمد الأصمعي أسلوب الاختصار حين يقدم للقصة في روايته مبيناً الدافع لقول الشاعر عند روايته لديوان الشاعر ، أو لدى شرحه لنص من النصوص ، ومن ذلك : " قال أبو حاتم : قال الأصمعي : خرج النعمان بن المنذر وكان كسرى عمله على العرب ، فمر على إبل لسنان بن عائد الضبي من بني عبس بن خبيب ، فقال : ما رأيت كاليوم إبلأ ليست ملك . وكانت العرب إذا بلغت إبل الرجل ألفاً فقا عين جمل منها ... " ^(٢٢)

لقد كانت القصة التاريخية مادة خصبة في رواية الأصمعي حين تناولها في شرحه للنص حين أدرك علاقتها بالأحداث وقدرتها على رسم صورة دقيقة للمجتمع الجاهلي من ذلك قصة (منشر وعطرها) الذي ذكرها الأصمعي في روايته لديوان زهير^(٢٣) والأعشى^(٢٤)، وقصة (زرقاء اليمامة) في روايته لديوان النابغة^(٢٥) وقصة سليمان عليه السلام والجن وبناء تدمر، كما تحدث الأصمعي عن الجن وذكر أخبارهم^(٢٦).

الأنساب :-

اشتهرت الأنساب كنمط من المعرفة التاريخية، سعت كل قبيلة من خلاله إلى حفظ نسبها وتلقيه لأبنائها لتظل نقية بعيدة عن الشوائب، وتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى، وكان لهذا الفرع من التاريخ مكانته بعد الإسلام.

ولقد كان لكل قبيلة نسابتها الذين اشتهروا بحفظ نسب القبيلة عن ظهر قلب قصد التباهي والتفاخر به أمام القبائل الأخرى.

ولعب الشعر العربي دوراً كبيراً في حفظ نسب القبيلة، بل كان الوسيلة الأساسية التي اعتمدها النسابون، يقول ابن فارس: "الشعر ديوان، وبه حفظت الأنساب، وعرضت المآثر ومنه تعلمت اللفظة..."^(٢٧)

وللأصمعي يد طويل في علم الأنساب، إذ كانت صلته الوثيقة بالقبائل، وعنايته الشديدة بجمع أخبارها وأشعارها وآدابها تقودانه على معرفة أنسابها، وله من الكتب "كتاب النسب"^(٢٨) ولكنه من الكتب المفقودة، غير أن الدكتور عبد الجبار الجومرد وجد في أثناء أبحاثه عن أخبار الأصمعي في المكتبة الوطنية في باريس مخطوطاً بالخط الكوفي على ورق من الجلد باسم "العرب من أبناء هود" يبحث في أنساب ملوك وأمراء اليمن الأقدمين، وأخبارهم، وقد دون في مقدمته أن أبا حاتم السجستاني قد نقله عن أستاذه الأصمعي من محاضرات كان القاها في بغداد. وقد طبع هذا الكتاب تحت عنوان "تاريخ العرب قبل الإسلام" على نسخة نفيسة عتيقة كتبت عام ٢٤٣ بخط يعقوب بن السكيت، ويعد الكتاب من المؤلفات النادرة التي عثر عليها من التراث العربي،

وقد عثر على نسخة وحيدة منه في مكتبة باريس الوطنية وهذه النسخة الأثر نفيسة جداً ، بل لعلها من النماذج النادرة في العالم ، فقد كتبت على ورق الرق بالخط الكوفي ، وتم استنساخها في العاشر من شوال سنة ٢٤٣ هـ .

ويظهر أن الأصمعي وضع هذا الكتاب لأحد خلفاء عصره ، فهو يقول عند بداية كل فصل : " وبلغني يا أمير المؤمنين " وقال في المقدمة : " أما بعد : فقد أمرت أيد الله دولتك ، وأيد صولتك ، وأطال في ظل أفياء السلامة بقاءك ، وحجب عن غير نواب الدهر نعماك ، بأن أجمع ما بلغني من أخبار ملوك العرب البائدة الأولى ، وبعضاً من سياستهم ونصائحهم ، وأشعارهم وخطبهم ومسراهم في تدبير ما خولهم الله ، ووقائعهم ، فرأيت استفرغ المجهود في قلة ما وصل إلي من ذلك عنراً ، ووجدان ما به الكفاية عسراً ، لانتقطاع أخبارهم ، ومحو آثارهم ، فاتعبت ركبتي بجوب القبائل ، مستقصياً بها رواة الأخبار ، وحفظة تواريخ ما مضى من الإعمار ، فاستقصيت كل من رافقته من النسابين ، وتلقيت ما روته لي الشيوخ المعمرة عن الأجداد السالفين ، إلى أن جمعت منة هذا القدر القليل ، امتثالاً للأمر العالي الجليل .. والذي وقع عليه إجماعهم يا أمير المؤمنين : إن أول ملك تتوج من العرب هو قحطان بن هود النبي عليه السلام ، وهود هو أول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام . " (٢٩)

وجاء في آخر الكتاب " قال أبو يوسف يعقوب بن السكيت هذا آخر ما وصل إلي من تاريخ ملوك العرب الأولى من بني هود وغيرهم لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي " . وفي مكتبة المجمع العلمي العراقي نسخة مصورة منه ذكرها ميخائيل عواد في مخطوطات المجمع العلمي العراقي - دراسة وفهرسة [١ بغداد ١٩٧٩ ص ٢٢٣ رقم ٦] وقال عنه جواد علي : " وفي كتاب تاريخ ملوك العرب الأولى من بني هود وغيرهم لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، وصايا وعظات في أصول الملك والحكم نسبها إلى ملوك العرب الماضين قبل الإسلام دونها للخليفة المأمون لتكون له هادياً ومرشداً في كيفية الحكم .

ولقد شكك حمد الجاسر^(٤١) في مجلة العرب في الكتاب ، ورجح أنه للحسن الهمداني وقال : لعله قطعه من تاريخ حمير .

غير أن بروكلمان ذكره للأصمعي^(٤٢) وأشار إلى نسخة منه في المتحف البريطاني وسماها " نهاية الإرب في أخبار الفرس والعرب " ^(٤٣) .

وقام بتحقيق نسخة باريس الشيخ محمد حسن آل ياسين عام ١٩٥٩ ونشرها باسم " تاريخ العرب قبل الاسلام " .

والمتأمل في النص الذي عرضناه من مقدمة الكتاب فيما تقدم ، يجد منهج الأصمعي واضحاً في طريقة جمعه مادة هذا الكتاب وهو يجوب القبائل ويلتقي رواة الأخبار وحفظة التاريخ والنسابين والشيوخ ... أخذاً بما وقع عليه إجماعهم بذلك .. ويهمننا أن نشير إلى أن المنهج الأخباري لدى العرب تعرض إلى العديد من الانتقادات ، ومن ذلك ما يروى عن سلاسل الأنساب البعيدة التي يصعب تصديق حفظها على مدى مئات السنين ، كما تعرض لذلك ابن الكلبي وتلك الأشعار التي تروى عن ملوك حمير والأقدمين مثل : الصعب ذي القرنين ، وياسر ناشر النعم وغيرهما .

الأيام :

فاقت الأيام بعض الأحيان مكانة الأنساب ، وهي عبارة عن مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية . فهي ملك مشترك للقبيلة ، وبقيت كذلك ، حتى القرن الثاني الهجري ، - الثامن الميلادي - حين جمعت هذه الروايات وصنفت .

وقد تداولت الرواة العرب هذه الأيام في قالب شعري خالص أحياناً ، وفي قالب نثري تتخلله الأشعار أحياناً أخرى .. وكان منهج رواة أيام العرب متوافقاً مع الموضوع ، ومع الهدف الثقافي الاجتماعي لهذا النمط من أنماط المعرفة التاريخية .. وربما كانت الأيام عادات أو فرعاً من الثأر تتضمن المآثر والبطولات التي سجلتها القبائل وراحت ترويتها حيث أدخلتها سجل فخرها .. من هنا كانت مادة الرواة وعلمهم بتاريخ الجاهلية .. فحرصوا منذ القرن الثاني على تسجيلها وروايتها .

اعتمد الأصمعي في روايته لهذه الأيام على أساتذته الذين جمعوها عن أعراب وأشياخ أدركوا الجاهلية كابي عمرو بن العلاء ، كما كان ينقل من الأعراب القادمين من اعماق الصحراء الذين يمثلون منبع الرواية الأول كمسحل بن كعب ، وعمارة بن عقيل ، وأبو بسطام العلوي ، وبذلك يكون الأصمعي قد وقف على أيام العرب مع جملة الأشعار التي رواها . أما روايته لنقائض جرير والفرزدق فهي دون شك تشمل ما جاء من شعريذكر لتلك الأيام .^(٢٧)

وللأيام روايتها المتميزون فهي فن له أربابه ، أخذه جيل عن جيل ، حيث يمثل جيل الرواة الأوائل كابي عمرو ، والمازني ، ويونس بن حبيب ، والأساس الأول لهذا الفن أما تلامذتهم كابي عبيدة والأصمعي وابن الكلبي وآخرين ، فهم يمثلون الجيل الثاني الذي أفاد من خبرات أساتذته ، واهتم بالتدوين والرواية ، ينكر بروكلمان إن : " أعظم الفضل في حفظ هذه الأخبار والأشعار يعود إلى الكلبيين محمد بن السائب وابنه أي المنذر هشام بن محمد ، وعنهما أخذ المتأخرون " .^(٢٨)

اتسمت رواية الأصمعي للأيام بالاختصار كما يشير السكري في شرحه لأشعار الهذليين عن يوم الأحد^(٢٩) ، كما أدرك الأصمعي كثرة الخلاف في رواية الأيام^(٣٠) . وتحدث الأصمعي عن يوم ذي قار^(٣١) ، وعن يوم داحس والغبراء ، ويوم النفراوات ، ويوم الحلييت ، ويوم (سُمى) ويوم ملزق^(٣٢) ، ويوم كلاب .^(٣٣)

دوره في مسجد البصرة الجامع ومجالسته الرشيد :

يشير الجومرد إلى أن الأصمعي أنشأ حلقة في المسجد الجامع في البصرة في حديثه ، وفي سن مبكرة قائلاً : " إن مشيخة القراء كانوا يحضرون الأصمعي ، رغم حديثه لأخذ قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء عنه " .^(٣٤) وقد عُرف عنه حرصه ودأبه على إظهار جدارته وكفاءته وهو يقف أمام طلابه يلقي عليهم أوثق ما جمع في ألواحه ودفاتره ، وأفضل ما اختزن في ذاكرته من صحيح اللفظ وطرائف الأشعار والأخبار ، وقد جمع بين خفة الروح ورقة الطبع ووقار العلم وجلاله . وفي أخبار الأصمعي كثير من المناقشات التي كان يثيرها مع الأساتذة الآخرين في داخل المسجد أمام الطلاب كما جرت له عدة مناقشات مع أستاذه شعبة بن الحجاج^(٣٥) ، وسيبويه^(٣٦) وقد تركت هذه الدروس والمناقشات أثراً كبيراً في طلاب العلم من المسجدين الظرفاء الذين عرفوا بسرعة

الهدية وحبك النكتة ، أمثال عمرو بن بحر الجاحظ والعباس بن رستم ومحمد بن القاسم (أبي العيناء الضرير) .

وحوالي العام ١٧٢ هـ قدم الأصمعي إلى بغداد ، فنزل ضيفاً على صديقه الأمير سعيد بن مسلم الباهلي ، وكان مقرباً من الخليفة الرشيد ، واهتمت بغداد والبغداديون بقدمه مع أبي عبيدة وأجريت المناظرات بينهما وبين علماء بغداد وشيوخها ، وانهك الجوافكري بهما أياماً عديدة ، يومذاك كان هارون الرشيد في السادسة والعشرين من عمره ، يتذوق الأدب ، مرهف العاطفة والشعور ، ندي الكف . وأما الأصمعي فكان قد ناهز الخمسين ، متدقق النشاط ، طموح إلى الشهرة والمجد تملأ جوانحه وهوي دخل (قصر الخلد) آمال رغبة وأحلام يتمنى أن تتحقق .

وفي أول لقاء له بالرشيد سألته عن أرجوزة للشاعر رؤبة بن العجاج يمدح فيها أحد خلفاء بني أمية ، فأنشده الأصمعي أولها ، حتى إذا وصل إلى مدح بني أمية انتقل حالاً إلى أرجوزة للشاعر نفسه في مدح جد الرشيد أبي جعفر المنصور ، فسر الرشيد هذه الالتفاتة البارعة ، ثم سألته عن قصيدة للشاعر عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن يزيد الأموي والتي مطلعها :

عرف الديار توهمًا فاعتادها

فأنشدها الأصمعي ، والرشيد يوقفه عند كل بيت منها ، ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟ فيجيبه الأصمعي وكأنه كان حاضراً في ذلك المجلس ، فيعجب الرشيد بأجوبته وصحة روايته ، ويناقشه أحياناً في قوله ، وكان الرشيد قد درس أخبار هذه القصيدة ، ثم يسأله عما قال الشعراء الحاضرون في ذلك المجلس حين إنشادها ، فيجيبه الأصمعي بما كان قد جرى ، فيقول : أحسنت .. ويواصل الرشيد سؤاله فينطلق الأصمعي بالشواهد والأدلة والحجج ، والفضل بين يحيى يصفى ويعلق أحياناً مداعباً الرشيد .^(٥٢)

لقد وجد الرشيد في الأصمعي جليساً نادر المثل ، نسيج وحده ، غزير العلم والأدب ، وافر الرواية في الأخبار والقصص والأيام ، ضليعاً في اللغة والشعر والنوادر والأخبار ، فاصطفاه وأحبه ، وقربه منه ، وغمره بجوده وعطائه ، وقد دامت مناداة الأصمعي ومجالسته الرشيد

خمس عشرة سنة بدأت حين استتب الأمن في دولة الرشيد عام ١٧٢ هـ وأنهاها على اثر نكبة البرامكة في أوائل عام ١٨٨ هـ وهي الحقبة التي يسمونها العروس لبهجتها وتالق نور حضارتها .
والجدير بالذكر أن صلة الأصمعي لم تنقطع قط مع البصرة في أثناء إقامته ببلاط الرشيد ، فقد كان ينتهز الفرصة المناسبة ، كفضو الرشيد لبلاط الروم أو غياب الخليفة في سفر ، فيعود إلى البصرة ليدبر أموره ، ويعرج على المسجد الجامع ليجتمع بطلابه ، أو يتصل بأهله ، وربما ركب ناقته ويمر شطر البوادي صوب القبائل ليجمع منهم الفوائد والأخبار ليعود يحكيها في مجلس الرشيد . يروي الخطيب البغدادي عن الأصمعي : " دخلت على الرشيد ومجلسه حافل - وكنت قد غبت عنه زمناً . فقال : ما أغفلك عنا يا اصمعي وأصفاك لحضرتنا ؟ قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك ، فامرني بالجلوس ، وسكت عني ، فلما خلا المجلس نهضت ، فأشار إليّ بالبقاء ، حتى لم يبق غيري ، ثم قال يا أبا سعيد ، ما معنى قولك : " لاقتني " ؟ قلت أمسكتني وأنشدت :

كفك كف ما تليق درهماً جوداً وأخرى تعطى بالسيف دماً

قال : هذا حسن ، وهكذا فكن ، وقرنا في الملا ، وعلمنا في الخلا ، فإنه يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً . فاما أن أسكت فيعلم الناس أنني لم أفهم ، إذا لم أجب ، وإما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولي أنني لم أفهم ما قلت " .^(٥٤) .

لقد حملت إليه صحبة الرشيد أسباب الشهرة والوجاهة ، فأصبح شخصية معروفة مشهورة في أرجاء المملكة الإسلامية بعد أن كان ذكره لا يتخطى حدود مدينته البصرة .

وبعد وفاة الرشيد اعتنر الأصمعي لتلميذه المأمون محتجاً بشيخوخته وضعف صحته ، وكتب إليه يقول : (" أصبحت لا أصلح لمنادمة الخلفاء ") .

غير أنه عاد إلى حلقاته في البصرة ، وعظم مجلسه أكثر من ذي قبل بفضل اتساع شهرته وعلو منزلته العلمية ، ومكانته الاجتماعية ، فقصده طالبو الفوائد . وامتد هذا المقام في البصرة حوالي ثلاثين عاماً ، انصرف فيها إلى التصنيف والتأليف حتى أتم عشرات الكتب التي أفاد

منها طلاب العلم ، يساعده في ذلك شباب من أسرته منهم عبد الرحمن ابن أخيه وابن أخته أحمد بن حاتم الباهلي ... وعندما بلغ التسعين ، خف نشاطه ، ومن المحتمل أنه ترك حلقاته في المسجد الجامع قبل وفاته ببضع سنوات ، وانقطع عن الناس ، حتى أغمض جفونه ، وصعدت روحه إلى بارئها في ليلة من عام ٢١٦ هـ فخرجت البصرة وراء نعشه تودع نابغة من نوابغ ابنائها ، خدم اللغة والفكر والتاريخ سبعين سنة دون انقطاع .

وبذلك نخلص إلى أن رواية الأصمعي للأخبار والقصص التاريخية والأنساب ذات قيمة تاريخية في معرفة تاريخ العرب ، وحضارية تبين عادات العرب ، وطرق تفكيرهم في ذلك الوقت ، فضلاً عن قيمها اللغوية الكبيرة والأدبية ، معتمداً في روايته على أساتذته الذين جمعوا مادتهم وعلمهم عن أعراب وأشياخ .

وقد أتمت روايته للأيام بالاختصار كما اتبع الإيجاز في شروحه المتضمنة للأخبار التاريخية ، معتمداً التسلسل المنطقي في رواية الخبر ، وحين تختلف رواية الخبر عنده ، ولا يجد في مصادره ما يوثق أحدهما لا يقطع بحكم ، كما كان يدقق في القصائد التي حملت بين ثناياها أخباراً ، وينبه إلى توافق هذه الأبيات مع النص أو الخبر وتقد الرواية .. وظل منهجه واحداً في رواية الشعر ، أو رواية الأخبار والأيام وما ارتبط بها ، شديد التحري والتحقيق لا يقبل غير الصحيح الثابت ، يضييق في روايته ، ويصرح بشكل حتى لو كلفه ذلك مناقضة الآخرين^(٥٥) واضح الأسلوب غير متكلف ، وقد حرصنا على الإيماء إلى تلك الجوانب التي كان وكندا فيها أن نبرز الأصمعي رواية للأخبار والقصص التاريخية ، مكتفين بالإشارة لهذه الجوانب في مضامها غير أبهين بحشدها بالقدر الذي تسمح به مساحة البحث .. آملي أن نكون قد عرضنا ولو لإشارات ذات بال . والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين .

الهوامش

١. ينظر كتابنا : الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي ١٢-١٣٥ ففيه تفصيل واف لترجمته وسلسلة نسبه وكتبه وعلاقته بالخلفاء
٢. نسب عدنان وقحطان : ١١
٣. ينظر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ٦٠/١
٤. ينظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٥/١
٥. شذرات الذهب ٣٧/٢
٦. مراتب النحويين ٥٩.
٧. ينظر معجم الأدباء ٢٨٧/٦
٨. تاريخ الرسل والملوك ٥٩٦/٧
٩. تاريخ بغداد ٤٣٠/١٠
١٠. نفسه ٤١٩/١٠
١١. وفيات الأعيان ٣٤٦/٢.
١٢. المصدر نفسه ٣٤٩/٢.
١٣. ينظر الأصمعي صاحب اللفظة : ١٣٤ وما بعدها فثمة نماذج لسبب مقتل زهير العبسي وربيعة بن مكرم وعمرو بن معد يكرب ، وأخبار مسلمة بن عبد الملك ومصعب بن الزبير وأخبار قبائل حمير .
١٤. ينظر الأغاني : ٢١٢/٦
١٥. الأماشي للقالبي : ٦١/١
١٦. ينظر المستجد من فعات الأجواد ١٦٦ .
١٧. ينظر كتاب الاختياريين ٤٩٨ .
١٨. عيون الأخبار ٢٠١/٣

١٩. ينظر في الأغاني أخبار الطينة ١٧٢/٢ وأوس بن حجر ٧٣/١ ، لبيد بن ربيعة ٣٦١/١٥ ،
وتابط شراً ١٣٣/٢١. وحسان بن ثابت ١٦٨/١٧ وفي ذلك الأمالي ١٠٩ أخبار حاتم الطائي وفي
خزانة الأدب ٣٢٥/١ أخبار الحارث بن حلزة.

٢٠. ينظر ديوانه : ٧

٢١. ينظر ديوانه ٢٧

٢٢. ينظر ديوانه ٢٥٢.

٢٣. ينظر كتاب الاختياريين ١٩٤ في خبر مقتل جد النعمان الذي كان يكنى بأبي قابوس

٢٤. ينظر الأغاني ٩١/١١

٢٥. ينظر الأغاني ٢٥٥/١٨

٢٦. شرح القصائد السبع : ٢٨٣ : ٢٨٤

٢٧. شرح اختيارات المفضل : ١٥٩٦.

٢٨. شرح القصائد السبع : ٤٧٠.

٢٩. الأغاني ٩١/١١.

٣٠. ينظر محيي أحمد ناصر السقدي / جامعة عدن ٢٠٠٦ رسالته الشعر في تاريخ الطبري.

٣١. انجزنا بحثاً بعنوان (الشعر مصدر فن مصادر التاريخ) تناولنا فيه الاشارات التاريخية في

شعر النقااض بين جرير والفرزدق بخاصته وأشعار الإسلاميين والأمويين .

٣٢. ديوان الطفيل ٩٠-٩٣ وينظر أيضاً في قصة قصيدة عجلان بن بكرة كتاب الاختياريين ٤٩٨ ،

المعاني الكبير ١٠٢٥ ، وقصة أم جندب في ديوان امرئ القيس ٤٠.

٣٣. الديوان ٧٤

٣٤. الديوان ١٥٣

٣٥. الديوان ٢٣ وتنظر القصة في تاريخ الرسل والملوك ٧٧٤/١.

٣٦. ينظر المعاني الكبير ٥٦٧ ، وبهجة المجالس ١٧٥/٢ ، جمهرة أشعار العرب ٢٧٥.

٣٧. الصاحبى في قمع اللغة : ٢٢
٣٨. ذكره ابن النديم في الفهرست ٨٢ ، والبغدادى في ايضاح المكنون ٣٤٢/٢ وذكر في هدية العارفين ٦٢٤/١ .
٣٩. تاريخ العرب قبل الاسلام بتحقيق الشيخ آل ياسين / المقدمة
٤٠. ينظر رأي الجاسر في العدد الأول من مجلة العرب (رجب ١٣٨٦ هـ) وفيها ذكر رأي جواد علي
٤١. تاريخ الأدب العربي . ٩٤
٤٢. المصدر نفسه .
٤٣. ينظر كتاب أيام العرب : ١٣٣
٤٤. تاريخ الأدب العربي : ٣٠/٣
٤٥. ينظر أشعار الهذليين : ٧١٠
٤٦. ينظر تقاض جرير والفرزدق ٦٨٩/٢ .
٤٧. ينظر تقاض جرير والفرزدق ٦٣٩/٢ .
٤٨. ينظر أيام العرب ٤٦٩ ، الأغاني ٩٢/١١ ، شرح أشعار الهذليين ٧٠٣ .
٤٩. ينظر ديوان ذي الرمة ٩٤٦/٣ .
٥٠. الأصمعي (الجومرد) ١٣١
٥١. وفيات الأعيان ٣٤/٢ .
٥٢. المصدر نفسه ٣٢٤/٤ - ٣٢٥
٥٣. ينظر العقد الفريد ١٣٨/٣ .
٥٤. تاريخ بغداد ٩/١٤
٥٥. ينظر خزنة الأدب ٢٢٩/٤ ، الأغاني ١٠٢٤/٢ ، سرح العيون ٣٥٢

مصادر البحث ومراجعته

- ١- الأصمعي حياته وآثاره - عبد الجبار الجومرد ، دار الكشف ، بيروت ١٩٥٥ .
- ٢- الأصمعي ، صاحب اللغة وإمام الرواة ، د. رحاب عكاوي ، دار الفكر العربي بيروت ١٩٨٨ .
- ٣- الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي ، د. أياد عبد المجيد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٨ .
- ٤- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، مطبعة دار الكتب ، د. ت .
- ٥- بهجة المجالس وأنس المجالس ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله ، دار الجيل للطباعة بمصر ، د. ت .
- ٦- البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٧- تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحميد النجار ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- ٨- تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د. ت .
- ٩- تاريخ الرسل والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ١٩٦٠ - ١٩٧٠ م .
- ١٠- جمهرة أنساب العرب ، لأبي حزم الأنديسي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .
- ١١- خزنة الأدب ، لعبد القاهر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ - ١٩٨٠ .
- ١٢- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .
- ١٣- ديوان ذي الرمة ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، مطبعة طربين ، دمشق ، ١٩٧٤ .
- ١٤- ديوان طفيل ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٨ م .

- ١٥- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف بمصر ، د. ت
- ١٦- ذيل الأمالي والنوادر ، لأبي علي القالي ، القاهرة ١٣١٤ هـ .
- ١٧- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لابن بناته المصري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي بمصر ١٩٦٤ .
- ١٨- شرح اشعار الهذليين ، لأبي سعيد السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٦٥ هـ .
- ١٩- شرح القصائد السبع الطوال ، للأنباري ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- ٢٠- العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق أحمد أمين وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ط ١ ١٩٦٥ .
- ٢١- عيون الأخبار - لابن قتيبة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .
- ٢٢- كتاب الاختياريين ، للأخفش الأصغر ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دمشق ١٩٧٤ .
- ٢٣- كتاب أيام العرب ، لأبي عبيدة ، الدكتور جاسم الببياتي ، بغداد ، دار الجاحظ ١٩٧٦
- ٢٤- مخطوطات المجمع العلمي العراقي ، ميخائيل عواد ، مطبعة المجمع ١٩٧٩ م .
- ٢٥- المستجاد من فعلات الأجواد ، لأبي علي التنوخي ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٦ م
- ٢٦- المعاني الكبير ، لابن قتيبة ، ط ١ ، حيدرآباد الدكن ١٩٤٩ م
- ٢٧- تقاض جرير والفرزدق ، لأبي عبيدة ، مطبعة بريل ، لندن ١٩٥٥ م
- ٢٨- وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ .